

دراسة توظيف تقنية الاسترجاع الفني في «نهج البلاغة»

علي نجفي إيوكي^{١*}، صديقة جعفري نجاد^٢، معصومة حسين بور^٣

١. أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة كاشان
 ٢. طالبة الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة كاشان
 ٣. طالبة الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة كاشان
- تاريخ استلام البحث: ١٣٩٤/٠٧/٢٧ تاريخ قبول البحث: ١٣٩٥/٠٣/٠٩

الملخص

إنّ الاسترجاع الفني أو الفلاش باك^١ يعدّ من التقنيات الأدبية الهامة التي دخلت من السينما إلى الأدب. هذه التقنية وإن كانت حديثة العهد في نقد الأدب العربي، لكنّها وُظِّفت في النصوص الأدبية القديمة وتعتبر عاملاً محورياً لانتساع النصّ وافتتاحه على أزمنة مختلفة من الماضي وتجعله أن يصطبغ صبغة روائية. ومن النصوص التي استُخدم فيها هذا الفنّ هي «نهج البلاغة» للإمام علي (ع)؛ حيث يعثر المتلقي على بعض الخطب والرسائل التي جاءت كرواية تحتوي على تقنية السرد الاستدكاري والتحطيم الزمني. لذلك تتعاطي هذه المقالة بمنهجها الوصفي. التحليلي تسع خطب ورسالة واحدة من نهج البلاغة لكثرة توظيف هذه التقنية فيها حتى تبيّن فاعليتها على النص، وتأثيرها في تشويق المتلقي، وحثّه على الميل إلى الحوادث المستدكرة عبر المفارقة الزمنية التي تنتج وراء انتهاك الزمن من الماضي، والمضارع، والاستقبال. من المستنبط أنّ الاسترجاعات المتواجدة في النصّ المعني أدّت إلى انسجام هذا الكلام وتماسكه ومنح النصّ طابعاً جمالياً وفتياً بالإضافة إلى ما يحمله من دلالات وإشارات، كما أنه زاد على أدبية النصّ وحيوية ذهن المتلقي. هذا وإنّ الاسترجاعات الموجودة في النصّ المدروس على نوعين؛ الخارجية والداخلية. مضافاً إلى ذلك فإنّ الاسترجاعات الخارجية هي من أكثر أنواع الاسترجاعات تردداً في خطاب الامام (ع)؛ لأنّها تهدف إلى تنوير عقلية المتلقي بتزويده معلومات عن الشخصيات المسترجعة أو الحادثة المستحضرة عبر إزاحة الستار عن ماضي الشخصيات والحوادث.

الكلمات الرئيسية: نهج البلاغة؛ السرد؛ الاسترجاع؛ المفارقات الزمنية.

١. المقدمة

إنّ «الاسترجاع» هو تقديم الماضي على الحاضر حيث تأتي هذه التقنية «مخالفة لسير السرد وتقوم على عودة الراوي إلى حدث سابق وهذه المخالفة لخطّ الزمن تولّد داخل الرواية نوعاً من الحكاية الثانوية ولا شيء يمنع أن تتضمن الحكاية الثانوية حكاية فرعية» (الزيتوني، ٢٠٠٢: ١٨) وعلى هذا الأساس يعتبر الاسترجاع من التقنيات التي تحطّم الزمن في الحكوي وتحيلنا إلى أحداث سابقة على الزمن الحاضر. والتقضي في الكتب النقدية الحديثة يجعلنا أن نعترف بأنّ مصطلح «الفلاش باك» جاء معادلاً أصلياً للاسترجاع؛ حيث يحتوي هذا المصطلح على كلمتين: «Flash» بمعنى الففز و«Back» بمعنى الورا والفلاش باك بمعنى الففز إلى الورا. كما جاءت هذه الكلمة معادلاً للمصطلحات التالية: «تقنية السرد الاستذكاري، الارتداد والاستحضار». فضلاً عن أنه كان يستخدم «الفلاش» في الزمن القديم بمعنى «اللمحة» وفي أواسط القرن التاسع عشر استُعمل بمعنى «النظرة الحافظة» وأخيراً أي في القرن العشرين دخل هذا المصطلح إلى السينما. وقد ذُكرت تعاريف سينمائية لفلاش باك أهمّها عرض مشهد يعود إلى حدث قد مضى (توريم، ١٣٧٧: ٨٣).

وفنّ الاسترجاع دخل من السينما إلى الرواية ومعناه الرجوع أثناء التسلسل الزمني المنطقي للقصة أو المسرحية أو الفلم إلى ذكر أحداث ماضية لإيضاح الظروف التي أحاطت بموقف من المواقف أو التعليق عليه وهذه الوسيلة مستعملة في الأخصّ وبصفة رئيسية وأصلية في السينما ثم امتدّت بعد ذلك إلى الرواية البوليسية التي كثيراً ما تبدأ بالجريمة ثمّ تسرد الأحداث التي أدّت إليها (الحويم، ٢٠٠٠: ١٦).

فإنّ كل عودة للماضي تشكل بالنسبة للسرد استذكّاراً يقوم به لماضيه الخاص، ويُحيلنا من خلاله إلى أحداث سابقة عن النقطة التي وصلت إليها القصة» (بحراوي، ١٩٩٠: ١٢١). بناءً على ذلك، تُحدث تقنية السرد الاستذكاري تعطيلاً لحركة السرد وتوقّفاً بها وكثيراً ما تعود هذه الحركة إلى الحدث الأخير الذي انتهى إليه في موقع بدأ منها. فما إن تعين هذه التقنية بعضاً من ماضي الشخصيات أو صفاها حتى تؤوب إلى النقطة التي تمّ تعطيل حركة السرد عندها أو ما إن يتمّ الكشف عن ذلك الماضي، حتى ترتدّ حركة السرد إلى الحدث الذي انتهى إليه (الصالح، ١٩٩٩: ٣٠).

تأسيساً على ما سبق يمكن القول إنّ الاسترجاع هو تتابع الراوي تسلسل الأحداث طبق ترتيبها في الحكاية، ثم يتوقف راجعاً إلى الماضي، ليذكر أحداثاً سابقة للنقطة التي بلغها في سرده (سويدان، ١٩٩٠: ١)

وهو شكل من أشكال المفارقة الزمنية، الغاية منه توضيح ملابسات موقف معين ويذكر أحداثاً سابقة على الحدث الذي يسرد في لحظته الحاضرة ويرتبط بالذاكرة الشخصية، لأنّ زمنه الماضي ومن خلال اختراقه يتم استدعاء بعض الوقائع والمواقف، وجعلها تنشط في نطاق الحاضر، لذا يعدّ انزياحاً لطبقات متعددة. وكذلك هو أسلوب في غرضه سدّ الفجوات والثغرات التي يوجد بها السرد، وإغناء العمل القصصي بتقنيات فنية وجمالية، وإدخال معلومات جديدة على الرواية بإعطاء تفاصيل عن شخصية من شخصياتها، أو الإشارة إلى أحداث سبق للسرد أن تركها جانباً، أو التذكير بحدث سابق عن طريق التكرار (بحراوي، ١٩٩٠: ١٢١).

أشكال الاسترجاع

وفقاً لما تعود إليه الحكاية ينقسم الاسترجاع على العموم إلى الأقسام التالية:

(أ) الاسترجاع الخارجي: هو ذلك الذي يعود إلى ما قبل بداية الحكاية، أي زمن الحدث خارج زمن الحكاية. ويتناول هذا النوع من الاسترجاع أحداثاً تنتظم في سلسلة سردية تبدأ وتنتهي قبل نقطة البداية للخطاب والحكي. بتعبير أدقّ «وظيفة الاسترجاع الخارجي هي إكمال الحكاية الأولى عن طريق تنوير القارئ بخصوص هذه السابقة أو تلك» (جنيت، ٢٠٠٠: ٦١). هذا وإنّ الاسترجاع الخارجي ليس جزءاً من الحكاية الرئيسيّة، وإنّما هو سرد متمم عن طريق تذكير القارئ بتلك الحوادث الماضية.

(ب) الاسترجاع الداخلي: هو ذلك الذي يستعيد أحداثاً وقعت ضمن زمن الحكاية، أي بعد بدايتها. على سبيل المثال إذا كانت الحكاية قد بدأت من سنة ١٣٨٥ هـ، واللحظة الراهنة فيها سنة ١٣٨٧ هـ، وكلّ أحداث وقعت سنة ١٣٨٦ هـ، وتشير إلى هذه السنة وتعود إليها فيعتبر الاسترجاع داخلياً (شهباء، ١٣٨٧: ٣٣٣). وهو الاسترجاع الذي تقع سعته داخل سعة الحكاية الأولى، وهكذا فإن حقله الزمني متضمن في الحقل الزمني للحكاية (نفس المصدر: ٦١). إضافة إلى ذلك فالاسترجاع الداخلي على النقيض من الاسترجاع الخارجي مادّته المستعادة تعدّ جزءاً من الحكاية ومتضمن في الحقل الزمني للحكاية الأولى؛ فقد يكون الهدف منه سداد فجوة في الحكاية، أو ذكر شيء محذوف، أو تفسير مضمّر (خليل، ٢٠١٠: ٥٥).

(ج) الاسترجاع المفصل: هو الذي يعطينا معلومات كثيرة عن الماضي (شهباء، ١٣٨٧: ٣٣٣).

(د) الاسترجاع المحمل: هو الذي يعطينا معلومات قليلة عن الماضي ويترك جانباً كثيراً منها (نفس المصدر).

ضرورة البحث

الحق أنّ الزمن يحمل أهمية خاصة في الحكيم، فهو يعمق الإحساس بالحدث والشخصيات لدى المتلقّي. قد يميز الباحثون السرديات البنيوية في الحكيم بين المستويين للزمن؛ زمن القصة: وهو زمن وقوع الأحداث المروية في القصة، فلكل قصة بداية ونهاية ويخضع زمن القصة للتتابع المنطقي. وزمن السرد: وهو الزمن الذي يقدّم من خلاله السارد القصة ولا يكون بالضرورة مطابقاً لزمن القصة (بوعزة، ٢٠١٠: ٨٧). فمن المعروف أن مهمة الكاتب في القصة هي تنظيم الأحداث طبيعياً في الخطاب السردية، والأصل في القصة أن تخضع للترتيب الطبيعي المنطقي، ولكنّ زمن السرد أحياناً لا يطابق الترتيب الطبيعي للأحداث فتشكّل مفارقات زمنية و يحدث تذبذباً في ترتيب الأحداث وخلخلة في وتيرة الزمن وخطيته والمفارقات الزمنية. ومما يجدر بالذكر هو أنّ بنية الزمن تؤثر بوضوح على خصائص الحكاية ويعرّف القارئ على الجوانب العاطفية والروحية للشخصيات؛ حيث لا يمكن الحصول على هذه الجوانب عبر الرواية الخطية والترتيب الزمني المنطقي (ميرصادقي، ١٣٨٧: ٢٧٢).

ففي ضوء أهمية الموضوع، أخذت هذه المقالة تركز على استخراج الأمثلة الاسترجاعية في تسع خطب ورسالة واحدة تمتاز بالتسلسل الأحداثي المتواصل؛ حيث نرى عدة قصة في خطبة واحدة، وتدور هذه القصص حول القصة الأصلية، وهذا ما يمهد ميداناً واسعاً لدراسة عنصر الفلاش باك. والتقصّي في نهج البلاغة يستبين أنّ أمير المؤمنين استخدم هذه التقنية لأغراض ما وهي: الغرض التوبيخي، والغرض التكميلي، والغرض المدحي، والغرض الفخري، والغرض الاعتباري. ثمّ إنّ الاسترجاعات في النص السردية للإمام (ع) تنقسم إلى الداخلي والخارجي، وبين قصير المدى وبعيد المدى، ولكلّ منهما إسهام كبير في تقديم المعلومات عن الماضي. لذلك تتعاطي المقالة هذه الأغراض في نهج البلاغة مع التركيز على شرح النماذج وتحليلها.

فأسلوب هذا البحث يبتني على القيام بدراسة تقنية الاسترجاع في عدّة من الخطب على نحو يتم فيه تحديد الاسترجاع وأغراضه. وبما أنّ قد تشمل خطبة واحدة على أغراض مختلفة فتتقسم تلك الخطبة تحت عناوين شتى؛ فعلى سبيل المثال نجد في خطبة ٢٢٤ أغراضاً كالفرح والتوبيخ كما أننا نجد في خطبة القاصعه (خطبة رقم ١٩٢) مضامين مختلفة كالعبارة والفرح والتوبيخ؛ لذلك يأتي تقسيم بعض الخطب تحت عناوين مختلفة.

أسئلة البحث

هذا المقال يسعى إلى الإجابة عن هذه الأسئلة:

١. ما هو هدف الاسترجاع الموظف في خطاب الامام علي (ع)؟
٢. ما هو مدى تأثير الاسترجاع في النص السردي لخطابه وما هو أنواع الاسترجاع في نهج البلاغة؟ ومتى تستخدم هذه التقنية؟

فرضيات البحث

من المفروض أنّ الامام علي (ع) من خلال توظيف الاسترجاع قام بذكر أحداث ماضية ليوضح الظروف التي أحاطت بموقف من المواقف أو التعليق عليه؛ إذ قدّم للمتلقّي معلومات كثيرة عن ماضي الأشخاص والأحداث بحيث تختلف هذه المعلومات عن معلوماتهم الحالية، فعلق الأحداث ووضّحها عبر الحكايات الواردة داخل الخطاب، ورمي بذلك إلى التوبيخ، والمدح، والعبارة، والفخر محاولاً أن يحثّ المتلقّي ويحترز عن إتيابه عند الاستماع أو قراءه النص؛ لأن الحوار الطويل يمكن أن يتعب القارئ.

خلفية البحث

قد سبقت هذه الدراسة دراسات أهمّها: «دراسة نقدية في توظيف الاسترجاعات في قصّة النبي يوسف (ع)»، لـ «حسين كياني والآخريين» (١٣٩٢)، مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها، العدد الرابع عشر، صيف ١٣٩٢ هـ.ش، و«تحليل زمان روایی از دیدگاه روایت شناسی براساس نظریه ژنت در داستان بیوتن» لـ «رضا امیرخانی» فصلنامه تخصصی سبک شناسی نظم و نشر فارسی (بهار ادب، سال چهارم، شماره سوم، پاییز ١٣٩٠) و «مؤلفه های زمان و مکان روایی در قصص قرآنی» لـ «ابوالفضل حرّی» مجلة ادب پژوهی: بهار و تابستان ١٣٨٨، شماره ٧ و «البنية السردية في الخطاب الشعري قصيدة عذاب الحلاج نموذجاً» لـ «هدى صحنواي» مجلة جامعة دمشق العدد (١٠٢) سنة ٢٠١٣ و «دراسة آليات بناء الزمن في القصة القصيرة المصرية في الستينيات» رسالة الدكتوراه في جامعة حلوان، سنة ٢٠١١ لـ «هيثم الحاج علي». هذه الدراسات التي مرّ ذكرها دراسات قيمة، غير أنّها لم تشر إلى الاسترجاعات المتواجدة في نصّ

الامام علي (ع) رغم أنّها على أعظم جانبٍ من الخطورة وتلعب دوراً فعالاً في البنية السردية لنصّه.

توظيف الاسترجاع في نهج البلاغة

السارد يقطع وتيرة النظام الزمني المتسلسل ليستذكر الأحداث الماضية وذلك استدعاءً للزمن الماضي الذي هو بمثابة مصدرٍ يعود إليه السارد لتوضيح شيء ما يرتبط بالحاضر. وقد أفاد الامام علي (ع) من هذه التقنية في بعض خطبه كخطب رقم (١٩٢، ١٩٦، ٥٧، ٢٢٤، ١٢١، ١٥٦، ١٨٢، ١٦٦، ٧١) على أساس كتاب «محمد دشتي»، و رسالة رقم ٢٩. هذه الخطب والرسالة اتجهت اتجاهاتٍ قصصياً واستفيد فيها البناء السردية؛ إذ نجد الامام يعود بتوظيف هذا الفن للماضي في لحظات سردية محدّدة.

١. الاسترجاع الداخلي

١-١. الغرض الاعتباري

الاسترجاع الداخلي هو الاسترجاع الذي تقع سعته داخل سعة الحكاية الأولى، وهكذا فإنّ حقله الزمني متضمن في الحقل الزمني للحكاية كما مرّ ذكره. وأما الغرض الاعتباري فحذاء به الامام لتنبّه الناس عبر إشارته إلى أحداث وقصص توحى العظة والعبرة. ومن الأمثلة على ذلك، الخطبة القاصعة الطويلة التي ألقاها الامام في سنة ٤٠ للهجرة ركباً الفرس (دشتي، ١٣٧٩: ٣٨١):

«وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَارَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُفَرِّقِينَ لِيَمَيِّزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ وَمَحْجُوبَاتِ الْعُيُوبِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ...» (نهج البلاغة، ١٣٧٩: خطبه ١٩٢: ٣٨٠).

لقد تحدّد اللحظة التي يبدأ بها السرد بعلو الشأن الباري تعالى، ثم يشرح بداية الخلق حين خلق الله آدم من الطين وأمر إبليس بالسجدة فتكبر وأبى، ثم يقول عليه السلام: «ففعّل ذلك الله ليتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله». ويرد قائلاً: «اعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس». ثم يأمر الناس بالتواضع ويقول: «اتخذوا التواضع مسلحةً بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده... ولا

تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضَّلَ جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ سِوَى مَا أَحَقَّتْ الْعَظْمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عِدَاوَةِ الْحَسَدِ وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْعَضْبِ وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبَرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ اللَّهُ بِهِ النَّدَامَةَ وَالزَّمَةَ آتَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...» (نفس المصدر، ٣٨٤). يبدأ الاسترجاع كما يبدو من النص من خلال استدعاء شخصية «قاييل» لتوضيح الكبر، فبهذه القصة أي قصة قاييل الذي استولى عليه الكبر وقتل ابن أمه، يأتي الامام بالاسترجاع لكي يتعظ الناس ويحذروهم عن الكبر. فالاسترجاع أو الفلاش باك هنا يكون من النوع الداخلي؛ حيث تم من داخل الحكاية إلى داخلها وبدأ بعد اللحظة التي خلق آدم، وبعد اللحظة التي ألبس السجود لآدم، ومن ثم خلقت حكاية ثانية. وجدير بالذكر أنّ الشخصية الرئيسية لهذا الحكاية هو آدم وإبليس فيركز الامام (ع) عليهما. ولكن شخصية قاييل هنا غير رئيسية وتحمل في طياتها معلومات عن التكبر ويؤكد الامام (ع) على هذه المعلومات تذكيراً للناس.

هذا وإن أمير المؤمنين (ع) استمر في كلامه وأخذ يعظ الناس بتجنب الأخلاق الجاهلية، والابتعاد عن الأفعال المتكبرين، والاعتبار بما أصاب الأمم المستكبرين. ثم يدخل النص في حكاية ثانية، ويشرح أبعاد التكبر، ونهاية مطاف المستكبرين، فيقول في حكمة الاختبار: «فإن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين... وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بُنْ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِمَا مَدَارِغُ الصُّوفِ وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ وَدَوَامَ عِزِّهِ...» (نفس المصدر، ٣٨٤). وهكذا يعود بذلك إلى بداية الخطاب (أي التكبر) وإلى ما بعد بدايتها عدة مرات ليراهنا بصورة مختلفة وهو ما يؤدي إلى ظهور الاسترجاعات الداخلية، «حيث تعود الحكاية في هذا النمط على أعقابها جهاراً وأحياناً بصراحة وبالطبع لا يمكن لهذه الاسترجاعات أن تبلغ أبعاداً نصية واسعة إلا نادراً جداً بل تكون تلميحات من الحكاية إلى ماضيها الخاص» (جنيت، ١٩٩٧: ٦٤). وهذا الانتهاك في الزمن يستثير انتباه المتلقي عن طريق ما يمكن أن نطلق عليه «البداية من الوسط» حيث يبدأ السرد من منتصف الحكاية (نفس المصدر: ١٧٠).

ثم أخذ المتكلم يخاطب الناس ويذكر لهم أسباب انتصار الشعوب وهزيمتها قائلاً: «واحدروا ما نزل بالأمم قبلكم... تدبروا أحوال الماضين من المؤمنين...» ويأمر الناس بواسطة أفعال من مثل احدروا... تدبروا... تذكروا... فانظروا... حتى يصل إلى قوله: «فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَوَلَدِ إِسْمَاعِيلَ

وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الْأَحْوَالِ وَأَقْرَبَ اشْتِبَاةَ الْأَمْثَالِ تَأْمَلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشْتِيهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ لِيَلِيَ كَانَتْ الْأَكَاسِرَةُ وَالْقِيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ يُخْتَارُونَهُمْ عَنْ رِيْفِ الْأَفَاقِ» (نهج البلاغة، ١٣٧٩: خطبة ١٩٢: ٣٩٤). هكذا يرجع صاحب الكلام إلى الورا بصورة خاطفة ليمنح المتلقي معلوماتٍ عن أحداث اسماعيل، وبنو اسحاق، ويعقوب، ثم يصل إلى قوله: «تأملوا أمرهم في حال تشتيتهم وتفريقهم... ليال كانت الاكاسرة والقياصرة أربابا لهم يختارونهم... من بنات موؤدة... و اصنام معبودة...» (نفس المصدر؛ ٣٩٤) بناءً على ذلك، يُطلق عليه الاسترجاع الداخلي وبما أنّ هذا الاسترجاع يُعتبر كلمحةً إلى الورا، والتخلّف نحو أحداث القصة الماضية، ويستوعب مساحة قليلة فيسمى الاسترجاع التلميحى على حدّ تعبير بعض الباحثين (كيايى و الآخرون، ١٣٩٢: ١٥٤)؛ إذ أنّه يلمح إلى تشتت الأمم و من ثمّ استيلاء الأجناب . ملوك كسرى وقىصر . عليهم. وهذا الجهل والكبر ساقهم نحو وأد البنات وعبادة الأصنام. فالاسترجاعات في هذه الفقرة، جاءت كلّها داخلية وقصيرة؛ لإعطائنا معلومات ضئيلة عن الأحداث المذكورة. وبما أنّها تعتبر استذكّاراً لهزيمة الشعوب وانتصارها فالاستذكّارات أعرضت نفسها لاعتبار الشعوب من الأمم السالفة لكي لا يتمادوا في التفرقة والتشتت.

٢-١. الغرض التوبيخي

يكشف النصّ السابق الذي أسلفت معالجته عن الجهل و التكبر - من وأد البنات و عبادة الأصنام- فيستنبط أنّه لم يكن همّ علي (ع) تجاه هذه القضية مقتصرًا على العبرة بالماضين، بل يوتّخ هذه الصفات القبيحة. لذلك يهدف الاسترجاع الغيّي إلى التوبيخ.

٣-١. الغرض الفخري

إنّ النصّ السابق يشتمل على الغرض الفخري أيضاً؛ إذ يستمرّ المتكلّم في الكلام، ويدخل إلى حدث آخر، ويذكر مكتسبات البعثة النبوية قائلاً: «بعد أن كانت الأحوال مضطربة والأيدي مختلفة والاصنام معبودة...»، ثمّ يرتدّ إلى البعثة بقوله: «فَانظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا فَعَقَدَ مِلَّتَهُ طَاعَتَهُمْ وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أَلْفَتَهُمْ كَيْفَ نَشَرَتِ النُّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا وَالتَّقَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا عَرِيقِينَ» (نهج البلاغة، ١٣٧٩: خطبة ١٩٢: ٣٩٦)، ويذمّ الناس في زمنه. الكوفيين. ويقول: «أَلَا وَإِنَّكُمْ

قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ... صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَغْرَابًا وَ بَعْدَ الْمُوَالَاةِ أَحْرَابًا مَا تَتَعَلَّمُونَ مِنْ
 الْإِسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِهِ وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ» (نفس المصدر) ثم يستحضر الماضي بواسطة جهاده
 مع المنحرفين ويقول: «أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكَثِ وَالْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ فَأَمَّا النَّاكِثُونَ
 فَقَدْ قَاتَلْتُ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ...» (نفس المصدر؛ ٣٩٨).

هذا وإن الامام أخذ يستحضر الأحداث التاريخية ويرى نفسه مأموراً للجهاد مع المنحرفين
 قائلاً: «ألا وقد أمرني الله بقتال أهل البغي والنكث و... فأما الناكثون فقد قاتلت و...». من
 الملاحظ أنّ زمن الخطاب هو الزمن الذي يوجه الكلام إلى الناس ويعظهم؛ إذ المتلقي يرى تقاسم
 ذكريات الماضي مجريات أحداث الحاضر؛ حيث يعود إلى ماضٍ يبلغ إلى سنين عديدة من قبل.
 على سبيل المثال، يرتد المتكلم إلى الماضي البعيد وهو زمن الصغر والطفولة؛ حيث يقول: «أنا
 وَضَعْتُ فِي الصَّعْرِ بِكَلَاكِلِ الْعَرَبِ وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونٍ رَيْبَعَةً وَمُضَرَّ»، ثم يرتد إلى ماضٍ أبعد
 وهو زمن طفولة النبي مستذكراً: «وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْقُرْبَابَةِ
 الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخُصِيصَةِ وَضَعَنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ وَيُمْسِكُنِي
 حَسَدَةً وَيُسْمِنُنِي عَرْفَةً وَكَانَ يَمْضَعُ الشَّيْءَ...» (نفس المصدر). و فجأة يقفز إلى الماضي القريب.
 وهو قبل البعثة النبوية و فيما يتعلّق بغار الحراء. ويقول: «وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِزُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِزَاءِ فَأَرَاهُ
 وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) وَخَدِيجَةَ
 وَأَنَا تَالِثُهُمَا» (نفس المصدر).

وهكذا يفتخر الراوي بإسلامه، وخلفيته، ومشايسته للرسول (ص). فالغرض من هذه
 الارتدادات الفنية هو الفخر. هذا وإنّه يزوّدنا بمعلوماتٍ ليس بيسير فيعتبر ذلك استرجاعاً بعيداً؛
 لأنّه يعبر عن مشايسته للنبي (ص) كلّ سنة إلى غار الحراء، وبعد ذلك يعبر عن إسلامه مع النبي
 (ص) وخديجة، ويفصّل ذلك تفصيلاً. ولا بدّ من القول هنا إنّ علاقة الاسترجاع الداخلي
 بأحداث أخرى في النص أخذت تنظم مقاطع من الزمن وتلفت انتباه المتلقي وتشيره. وفي ضوء
 هذا التفسير يمكن القول بأنّ في العودة إلى أحداث سابقة لتفسيرها ولربطها دوراً في التخلص من
 الملل والدعوة إلى التشويق من خلال تواصل المتلقي مع النص (الشباب، ٢٠٠٧: ٧٥).

وبما أنّ كلّ النماذج السابقة كان من الخطبة القاصعة فيمكننا أن نقول في الإجمال؛ إنّ

المشاهد الاستراتيجية تستوعب مساحة كبيرة من خطبة القاصعة وهذا يلائم كلّ التلائم مع أصول كتابة الرواية والسرد في العصر الحديث، والسبب يعود إلى تبني الخطبة على وحدة استراتيجية حاسمة وهي ذمّ التكبر والاعتصام بالتواضع. مضافاً إلى ذلك يلاحظ أنّ كلّ عناصر الخطاب يسعى إلى تحقيق اجتناب الكبر والتزام التواضع. وهذا يساعد على انسجام الخطاب، وتماسك النصّ، وإلحاق بدايته إلى المشاهد الأخيرة.

٢. الاسترجاع الخارجي

كما أسلف الذكر يتناول هذا النوع من الاسترجاع أحداثاً تنتظم في سلسلة سردية تبدأ، وتنتهي قبل نقطة البداية للخطاب، ويستعيد المتكلم الماضي، ويعرّفنا على ماضيه، أو ماضي الشخصيات و.. الخ، ويضيء جانباً أو جوانب من عوالمها الفكرية، والنفسية، وأبعادها الاجتماعية أو يستحضر الماضي ليعطينا تفسيراً للأحداث الحاضرة انطلاقاً من معطيات سابقة وتعدّ هذه من أهمّ وظائف الاسترجاع إضافة إلى أغراض أخرى كالتالي:

١-٢. الغرض الفخر

وفي خطبة له عليه السلام يقول: «وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وآله) أَنِّي لَمْ أُرِدْ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا وَلَقَدْ فُيِّضَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي فَأَمَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي وَلَقَدْ وُلِّيْتُ غُسْلَهُ (صلى الله عليه وآله) وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَابِي فَضَحَّحَتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَّةُ مَا لَأُ يَهْطُ وَمَا يَعْجُجُ وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْبَةً مِنْهُمْ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارْتِنَاهُ فِي ضَرْبِهِ فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا...» (نهج البلاغه، ١٣٧٩، خطبة ١٩٦: ٤١٢).

فلحظة الخطاب والحكي هي اللحظة التي يخبر الإمام (ع) الناس بأنّه لم يردّ على الله ورسوله فحسب ثمّ يعلّق ذلك عبر استعادته زمنياً نام في مضجع النبي (ص) بقوله: «ولقد واسيته...». فالاسترجاع هنا خارجي لأنه خارج عن المحكي وبما أنّ علي (ع) يفتخر بشجاعته في زمن كان الأبطال ينكمشون إلى الوراء وهو يدافع عن الرسول بنومه في فراشه، فجاء الغرض من الاسترجاع للفخر. ثمّ ينقلنا إلى ماضٍ أقرب أي زمنٍ كان رسول الله في حالة الاحتضار ويقول: «ولقد قبض

رسول الله وإن راسه لعلى صدري...». إن ما يمكن أن نستشفه من هذه العودة هو أنّ علي (ع) يريد أن يستذكر أنه كان يرافق الرسول (ص) في كل الأحوال حتى في غسله وإدخاله في القبر. والغرض الذي يرمي إليه أمير المؤمنين هو الفخر؛ لأنه يقول: «من ذا الذي أحق بمواساة الرسول من بين الأحياء والأموات».

وفي خطبة يقول لأصحابه في الإخبار عن الحكومة الجابرة: «أَمَّا إِنَّهُ سَيَطْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ... إِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي وَ الْبَرَاءَةِ مِنِّي فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ... فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَ سَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَ الْهِجْرَةِ» (نفس المصدر، خطبة ٥٧، ١٠٨).

نرى أن الامام (ع) يحكي لأصحابه حكومة رجل لايشيع، ويقصد به المعاوية. ثم يروي لهم أن هذا الرجل يأمر الناس بسبّه ويقول أن سبّه هذا لا يؤثر في أحد وبمنزلة الزكاة له. وفجأة يستعيد الامام الماضي وبصورة قصيرة يحكي لهم قصته مع الرسول (ص) بأنه أول مؤمن به؛ حيث يقول عنه ابن عباس: «لعلي (ع) أربع خصال ليست لأحد غيره هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله ص و هو الذي كان معه لواؤه في كل زحف وهو الذي صبر معه يوم فرّ عنه غيره وهو الذي غسله وأدخله قبره (ابن ابي الحديد، ٢٠٠٧، ج ٤: ١٤٧).

يمكن القول بأن الغرض من هذا الاسترجاع والارتداد الفني هو الغرض الفخري؛ حيث يفتخر بإيمانه غير مهتمّ بسبّ رجل بطين. وبما أنه يقدم قليلا من الماضي فيعتبر هذا الاسترجاع، استرجاعاً قصيراً خارجياً؛ لأن زمن الحدث (الإيمان برسول الله) خارج زمن بداية الحكاية (حكومته على الكوفة). لعلّ المتمعن في الخطاب السابق يجد أنّ الزمن يتناوب بين المستقبل، والحاضر، والماضي، ويشكل المفارقة الزمنية المسماة بالاسترجاع والاستباق؛ وأما الاستباق فهو استحضار الأحداث الواقعة في المستقبل وهو «القفز على فترة ما من زمن القصة وتجاوز النقطة التي وصلها الخطاب لاستشراف مستقبل الأحداث والتطلع إلى ما سيحصل من مستجدات في الرواية» (بحراوي، ١٩٩٠: ١٣٢ وينظر: خليل، ٢٠١٠: ٥٧ و ٥٨). فيدلّ الاستباق على الزمن القادم و التنبؤ بما سيحدث لاحقاً.

٢-٢. الغرض التوبيخي . الفخري

يتحدث الامام علي (ع) في خطبته قائلاً: «وأعجب من ذلك طارق طرقتنا بملفوفة في وعائها،

ومعجونة شينقتها كما عجنّت برقيق حية أو قيهها، فقلت: أ صِلَّةُ أم زكاة، أم صدقة؟ فذلك مُحَرَّمٌ علينا أهل البيت! فقال: لا ذا ولا ذاك، ولكنّها هديّة، فقلت: هيلتك الهبول! أعنّ دين الله أتيتني لتخدعني؟...» (نهج البلاغه، ١٣٧٩، خطبة ٢٢٤؛ ٤٦٠) والمتحدّث مرة ثانية يقفز بنا إلى الوراء ويزوّدنا بمعلومات عن الحادثة المسترجعة أو ما يتعلّق بها، فالاسترجاع هنا خارجي. ومما لا يدع مجالاً للشك أنّ علي (ع) يسترجع هذه القصة ليوتّج بعض الظواهر الانحرافية المتسرّبة في الحكومة كالرشوة، حيث يرفض قبول الهدايا؛ لأنّها قد تشوبها شائبة الرشوة. ويعتبرها أعجب من القصة التي أنفت ذكرها. قصة أخيه عقيل. حيث يقول: «وأعجب من ذلك...» فحاء الغرض للتوبيخ. ولا نعيد عن جادة الصواب إذ قلنا إنّّه يفتخر بنفسه، بصفته خليفة للمسلمين لا يقبل الهدايا ويطمح إلى الخصال المحمودة من قبل الحكّام، كما أنّ الغرض من هذا الارتداد يمكن أن يكون اعتباراً للأمرء والولاية في كل أزمنة وأمكنة لكي يجعلوا الامام أسوة لهم ويرفضون الهدايا والرشوة؛ حيث يعتبرها المتكلّم الخدعة.

انطلاقاً من نصّ الخطاب نرى أنّ الحكايات منسجمة كلّ الانسجام مع الخطاب رغم أنّ الزمن فيه يتأرجح بين الحاضر والماضي؛ لأنّ الإمام عندما يتراجع نحو الماضي يخلق أحداثاً جديدة تتلائم مع السوابق المعهودة عنه حول اجتنابه الظلم وعدم هضم حقوق الآخرين؛ حيث يحكي قصة أخيه عقيل وقصة طارق طرق بيته تأكيداً على بداية كلامه «والله إنّ أبيت...».

٣-٢. الغرض التوبيخي، الملحمي

وفي خطبة يقول الامام (ع) عن أسباب القبول بالتحكيم: «هذا جزاء من ترك العقدة...» (نفس المصدر، خطبة ١٢١؛ ٢٣٠). يحكي الامام أنّ التحكيم و هزيمة الكوفيين يعود إلى ترك البيعة. لو أمعنا النظر نرى أنّ الامام يرى سبب الهزيمة في ترك البيعة وكسر العقدة ثمّ يعلّق على ذلك بقفزة إلى الوراء قائلاً: «أما والله لو أنّي حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم وإن اعوججتم قومتكم وإن أبيتكم تدارتكم، لكانت الوثقى، ولكن من وإلى من؟ أريد أن أدوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة، وهو يعلم أنّ ضلعها معها...» (نفس المصدر). أي حين أمرهم إلى محاربة معاوية كرهوا وأبوا. فبهذا الاستدكار يخرج عن الحكاية الأولى (أي الهزيمة) ويبين حادثة خارجة عن الحكاية الأولى إلا أنّها متعلّقة

بالحكاية من جهة ما ويعلق للمتلقّي جانباً من الجوانب المعقّدة المتواجدة في الحكاية الأولى ويكشف عنها. والحكاية الثانية (الاسترجاع الخارجي) متعلّقة بكسر البيعة والهزيمة؛ لأنّه دعا الجيش إلى حرب معاوية وهم كرهوا ذلك وصارت النتيجة هزيمة. إنّ الاستدكار في هذا المقطع الزمني مديد وتوبيخي؛ إذ أنّ المتكلّم يشكو بالتفصيل عن سبب هزيمتهم حيث أراد من هذا الارتداد الفني توبيخ مخاطبيه.

وحيثما وبّخ الامام الكوفيين لتركهم البيعة، والهزيمة يعود إلى زمن كان الأنصارُ محمودين ثم أخذ يمدح أصحاب رسول الله (ص): «أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه؟ وقرأوا القرآن فأحكّموه؟ وهيجوا إلى الجهاد فوهوا اللّحاق أولادها، وسلّبو السُّيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زخفاً زخفاً وصفاً صفاً؟! بعضٌ هلك، وبعضٌ نجح. لا يُبشرون بالأحياء ولا يُعزّون عن الموتى...» (نفس المصدر).

تدور هذه الفقرة، حول المدح والثناء على أصحاب النبي (ص)؛ لأنّهم الذين آمنوا وجاهدوا إبان ضعف الإسلام، وخموله، وكانوا يتمتّعون بالزهد، والعبادة، والجهاد في سبيل الله. فنرى أمير المؤمنين يستذكر أصحاب النبي (ص). وعند القراءة الفاحصة لهذا الخطاب نجد أنّه باستدعائه الشخصيات المؤمنة يركّز على الصفات المحمودّة ومن ثمّ الفوز، ويعلق بهذا الاستدكار على أسباب هزيمة أنصاره؛ لأنّهم لا يملكون هذه الصفات. إذن نلاحظ أنّه يقارن بين أنصاره وأنصار الرسول (ص) بصورة غير مباشرة وعبر الاستفهام، فالغرض من توظيف الفلاش باك مدح؛ لأنّه يثني على أصحاب النبي. هذا وإنّه يمنحنا معلومات وافرة عن الأصحاب فيحسب الاستحضار مديداً. كما أنّ هذه المفارقة الزمنية تعيدنا إلى الماضي بالنسبة للحظة الراهنة استعادة لواقعة أو وقائع حدثت قبل اللحظة الراهنة التي يتوقّف فيها القصّ الزمني لمسافةٍ من الأحداث ليُدعّ النطاقَ لعملية الاسترجاع (الحاج على، ٢٠٠٥: ١١٨). ويعتبر ذلك انزياحاً زمنياً لما يجعل المتلقّي في ممارسة ذهنية؛ لأنّ أمير المؤمنين يقارن بين حالتين متناقضتين: إحداهما سابقة تتعلّق بأنصار الرسول (ص)، والأخرى يتعلّق بالحاضر وتعود إلى أنصاره الذين ران على قلوبهم بالإعوجاج وغيره من الصفات الرذيلة.

٤-٢. الغرض التوبيخي

وفي خطبةٍ يخاطب بها أهل البصرة حول وجوب طاعة القيادة ويقول إنّ من يطيعه يحمله على سبيل

الجَنَّة «وإن كان ذا مشقةٍ شديدةٍ ومذاقةٍ مريرةٍ» (نسخ البلاغة، ١٣٧٩، خطبة ١٥٦؛ ٢٨٨). ثم يستدعي قصة «عائشة»؛ حيث يقول: «وأما فلانة، فأذكرها رأيي النساء، وضِعْنَ عَلَا في صَدْرِهَا كَمَرْجَلِ الْقَيْنَةِ، وَلَوْ دُعِيَتْ لَتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَى، لَمْ تَفْعَلْ، وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى، وَالْحِسَابُ عَلَى اللَّهِ» (نفس المصدر). إن هذا الاسترجاع الذي ينير شخصية «عائشة» بصورة غير مباشرة وعبر الكناية بـ«الفلانة» وإن خرج عن مضمون الخطاب لكنه يقدم معلومات واضحة حول هذه المرأة. ويوتخ بذلك عائشة التي رفضت البيعة وكسرت الطاعة؛ «لأنها كانت تحقد على علي (ع) وكلما طال الزمان على الإمام، تضاعفت همومه إلى أن قُتِلَ عثمان وقد كانت عائشة فيها أشد الناس عليه تاليباً وتحريضاً. ولما سمعت قتله، أمّلت أن تكون الخلافة في طلحة، فعادت المرأة كما كانت أولاً، فعدل الناس عنه إلى علي (ع) فلما سمعت ذلك، صرخت: واعثماناه! قُتِلَ عثمان مظلوماً وثار ما في الأنفس حتى تولد من ذلك يوم الجمل و ما بعده» (ابن أبي الحديد، ٢٠٠٧، ج ٥: ١٣٢).

إن الإمام (ع) يشير بهذا الاستحضار إلى يوم الجمل وهذا خارج عن المحكي فيكون استرجاعاً خارجياً ويوتخ بذلك عائشة فيشكل الارتداد التوبيخي. ثم يعود إلى ماضي أبعد أي يوم أُحُد، اليوم الذي أُسْتُشْهِد فيه جماعة من المسلمين قائلاً: «لما أنزل الله سُبْحَانَهُ، قَوْلُهُ: عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا تَنْزُلُ بِنَا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِي، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مِنْ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحَبِزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَسَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتُ لِي: «أَبْشُرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟». فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ...» (نسخ البلاغة، ١٣٧٩، خطبة ١٥٦: ٢٩٠).

فالتص يشهد على أنّ الزمن هنا يترواح بين الماضي والمستقبل؛ فقد استطاع أمير الكلام أن يعود إلى الماضي بطريقة تلتحم بسياق المحكي رغم خروجه عن حدود الخطاب؛ إذ إنه يسعى في إرساء القيم الأخلاقية واعتقال النفس على الله كما صرّح في بداية كلامه في الخطبة: «فمن استطاع عند ذلك أن يعتقل نفسه على الله فليفعل». وقد قام بتقديم معلومات متعلقة بماضٍ تجاوز السنوات الماضية البعيدة (بحواره مع الرسول) ثم يخبر عن وقائع ستشاهد لاحقاً، وبهذا

الاستباق (أبشُر، فإنَّ الشَّهادة من ورائك)، يترك القارئ في حالة الانتظار. ولا بد لنا الإشارة إلى أنّ الانزياح الواقع في النص عدول عمّا هو مألوف ومعتاد، فالاهتمام بهذا الفنّ ينتهي إلى زيادة جمال الكلام، وقوته، ويلفت انتباه المتلقّي للنص، ويزيد على جماليته.

٥-٢. الغرض الاعتباري

وفي خطبة يقول: وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيِّ أَوْ عَرْشِ أَوْ سَمَاءٍ أَوْ أَرْضٍ أَوْ جَانٍّ أَوْ إِنْسٍ لَا يُدْرِكُ يَوْمِهِمْ وَلَا يُقَدَّرُ بَفَهْمِهِمْ وَلَا يَشْعَلُهُ سَائِلٌ وَلَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ وَلَا يَنْظُرُ بَعَيْنٍ وَلَا يُحَدُّ بِأَيْنٍ وَلَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ وَلَا يُخْلَقُ بِعِلَاجٍ وَلَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيمًا بِأَلَا جَوَارِحٍ وَلَا أَدْوَاتٍ... فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلْمًا أَوْ لِدْفَعِ الْمَوْتِ سَبِيلًا لَكَانَ ذَلِكَ سَلِيمَانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَعَ النَّبُوءَةِ وَعَظِيمِ الرَّزْفَةِ فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ رَمَتْهُ قِسِي الْفَنَاءِ بِنَبَالِ الْمَوْتِ وَأَصْبَحَتْ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً وَالْمَسَاكِينُ مُعْطَلَةً وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ... (نفس المصدر، خطبه ١٨٢: ٣٤٨.٣٤٦).

يصل الامام (ع) بعد أن يثني على الله ويوضح طرق معرفته إلى قوله بأنَّ الله لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس، ثم يحكي لنا حكاية موسى الذي كلمه الله أراه آياته الكبرى وبعد ذلك يرتد إلى زمن سليمان لكي يقول للناس إنه لا مفرّ من الموت، فالزموا التقوى؛ لأنّه لا سبيل لدفع الموت كما أنّ سليمان لم يستطع دفعه رغم أنّه سُخِّرَ له الملك وكان كلّ من الإنسان والجان في خدمته. وهكذا يسترجع الماضي وأحداثه لكي يثبتته في ذاكرة الناس، فالغرض منه اعتباري. وبما أنّ هذه الحكاية خارج المحكي والخطاب الموجّه، فيعدّ استرجاعاً خارجياً. ويتناوب الامام في خطابه، فتارة يصف الله وكلامه مع موسى، وأخرى يوصي الناس بالتقوى، وحين آخر يرجع إلى ماضي بعيد أي زمن سليمان، ثم ينتقل إلى اللحظة الحاضرة ويقول: «وإن لكم في القرون السالفة لعبرة...». ويشير إلى أحداث مضت أي أحداث العمالقة والفراعنة وأصحاب مدائن الرّس، فالاسترجاعات هنا خارجية؛ لأنّها خارجة عن المحكي والخطاب الموجّه وقصيرة إذ إنه يعبرها بصورة خاطفة. ومن كلام له عليه السلام يحثّ مخاطبيه على التآلف والاحترام المتقابل قائلاً: «لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ

بِكَبِيرِكُمْ وَلِيُرَأْفَ كَبِيرِكُمْ بِصَغِيرِكُمْ» (نفس المصدر، خطبة ١٦٦: ٣١٨). فمسار زمن النص يبدأ من اللحظة التي جلس على المنبر وخاطب الناس حول الرأفة والاحترام، ثم يبدأ بعد ذلك قطع وتيرة هذا الزمن؛ حيث يقول: «وَلَا تَكُونُوا كَجَفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ وَلَا عَنِ اللَّهِ يَعْقلُونَ كَقَيْضٍ بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ يَكُونُ كَسْرُهَا وَزُرّاً وَيُخْرِجُ حِصَانَهَا شَرّاً...» (نفس المصدر). لعل المتمعن يجد أنّ الزمن في هذا الحكيم هو لحظة الخطاب أي اللحظة التي يوصي الامام الناس بالاحترام المتبادل وفتحاً يقفز المتكلم إلى ماضٍ بعيد جداً. فالاسترجاع خارجي إذ إنه يكسر خطية مسار الزمن ويخرج عن الخطاب الموجه مستحضراً ماضياً غارقاً بالجهل. فنوع الفلاش باك هنا مديد؛ لأنّ المتكلم يوضح الأخلاق الجاهلية بالتفصيل ويقدم معلومات كثيرة عن الجهل واعتباري؛ ذلك أنّ الإمام (ع) يسعى إلى تخلص الناس في زمنه من الجهل عن طريق إلقاء اللوم الذي يلقيه على التاريخ الماضي ويتطلع بهذا إلى ترك الناس الرذائل الجاهلية والسعي في واقع جديد مختلف عما هو عليه الآن ليعطينا تفسيراً للأحداث الحاضرة انطلاقاً من معطيات سابقة.

إنّ الامام (ع) لا يقف عند هذا الحد بل يتجاوز خطابه إلى زمن أبعد من زمن الجاهلية؛ حيث يفتر الحاضر بالماضي قائلاً: «يَسْأَلُونَ مِنْ مُسْتَنَارِهِمْ كَسَيْلِ الْجَنَّتَيْنِ حَيْثُ لَمْ تَسَلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ وَلَمْ تَتَّبَثْ عَلَيْهِ أَكْمَةٌ وَلَمْ يَزِدْ سَنَنَهُ رِصٌّ طَوْدٍ وَلَا حِدَابٌ أَرْضٍ يُدْعَغُهُمُ اللَّهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَّتِهِ» (نفس المصدر). يبدو إنّه يشبه حالة تشتت بني أمية بسيل كسر سد مأرب، ويقصد بهذا التشبيه عبرة الناس من التفرقة والتشتت.

وفي مكان آخر ينذر أهل البصرة بسبب خلفهم العهد ويقول: «وَقَدْ كَانَ مِنْ انْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَوْ تَعَبُوا عَنْهُ، فَعَقَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ... وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ، لَا وَقِعَنَّ بِكُمْ وَقَعَةٌ لَا يَكُونُ يَوْمَ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَالْعَقَّةِ لِأَعْقٍ، مَعَ أَيِّ عَارِفٍ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلُهُ، وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقُّهُ، غَيْرَ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَمًا إِلَى بَرِّي، وَلَا نَاكِثًا إِلَى وَبِّي...» (نفس المصدر، كتاب ٢٩: ٥١٦).

هذه الرسالة ألقاها الإمام (ع) لأهل البصرة، يذكرهم فيها بما كان منهم في واقعة الجمل، وينذرهم، ثمّ يستذكرهم إحسانه إليهم وفضله عليهم بعد إساءتهم وقبح تصرفهم؛ بأنه قد غفر عن مجرمهم، ومن يستحق القتل منهم، ورفع السيف عن المحارب منهم بعد أن نكثوا العهد،

وخالفوا الأمر تبيينها لهم أن لا يعودوا لمثلها، وأن لا يلبوا وسوسة معاوية وإجاءاته لهم بالتمرد والعصيان، وإلا كان لهم منه يوم عظيم أعظم من يوم الجمل وأشدّ هولاً بل يحتقر يوم الجمل في مقابله بقوله: «ولئن الجأتموني إلى المسير إليكم لأوقعنّ بكم وقعةً لا يكون يومُ الجمل إليها الا كلعقة لاعمق...».

يطالعا الإمام (ع) بأحداث مضت، وتلك الأحداث متجسدة في الاسترجاع الخارجي؛ إذ يعود فيها بعد أن يحكي خلف الميعاد والعداوة من جانب أهل البصرة، حكاية يوم الجمل. ولا يقف عند حدود زمن معين بل يتراوح السرد الزمني بين أزمان ماضية (خلف العهد)، وأزمان حاضرة (عفوه عنهم)، وزمن المستقبل (لأوقعنّ بكم وقعةً لا يكون يومُ الجمل إليها الا كلعقة لاعمق) ففي هذا السرد مفارقة زمنية تجعل السامعين والمتلقين في ممارسة ذهنية.

إنّ ما يتراءى من هذه الوحدة السردية، هو الاسترجاع الخارجي «يتناول حادثة أسبق من المنطلق الزمني للمحكي الأول، ولذلك تظلّ سعته كلّها خارج عن سعة الحقل الزمني للمحكي الأول؛ لأنه يحيل إلى أحداث روائية وقعت قبل بدء الحكاية ووظيفتها الوحيدة هي إكمال المحكي الأول عن طريق تنوير المتلقي بخصوص هذه السابقة أو تلك (أحمد، ٢٠٠٥: ٢٣٨). وباسترجاعه الزمن الماضي (ماضي قريب من لحظة الخطاب) يريد إثبات شجاعته، ومن ثمّ يهدف إلى اعتبار الناس من هذه البسالة لكي لا يعودوا إلى الحرب ثانية. وبما أنّه يشير إليه بصورة خاطفة فيعتبر الفلاش باك قصيراً.

واللافت للنظر أنّ الاستذكار الخارجي يقف إلى جانب الأحداث والشخصيات ليزيد في توضيح الأخبار الأساسية في القصة، وفي إعطاء معلومات اضافية تتيح للقارئ فرصة جديدة في فهم هذه الأخبار. على أية حال حصل هنا من جرّاء توظيف هذا الفن حيوية المتلقي وعدم إبعاده في عملية القراءة أو الاستماع وإخباره عن حوادث ما؛ لتواجد هذه الفوائد يرى الباحثون أنّ الغرض من الاسترجاع هو توقّف القارئ أو المخاطب على شيء ما، اعتقاداً بأنّ هذا الفنّ يمتلك قدرة على حيوية المتلقي وإبعاده عن التعب إثر الحوارات الطويلة (كدرآبادي، ١٣٨٩: ٢٢٤).

٦-٢. الغرض التكميلي

لقد استفاد الامام علي (ع) من الاسترجاع للغرض التكميلي في خطبة في ذمّ أهل العراق:

«أَمَا بَعْدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ حَمَلَتْ فَلَمَّا أَمَّتْ أَفْلَصَتْ وَ مَاتَ قَيْمُهَا...
 أَمَا وَاللَّهِ مَا أَتَيْتُكُمْ إِخْتِيَارًا وَ لَكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقًا وَ لَقَدْ بَلَّغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ عَلَى يَكْذِبٍ
 فَاتَّكَلُّمُوا اللَّهَ تَعَالَى فَعَلَى مَنْ أَكْذَبُ أَعَلَى اللَّهِ فَإِنَّا أَوْلُ مَنْ آمَنَ بِهِ أُمَّ عَلَى نَبِيِّهِ فَإِنَّا أَوْلُ مَنْ
 صَدَّقَ بِهِ...» (نهج البلاغة، ١٣٧٩، خطبة ٧١؛ ١٢٠). يشرح الامام صفات أهل العراق فيروي أن
 حكومته عليهم ما كان عن طيب نفسه بل الأحداث جعلته يحكم عليهم مستطرداً؛ حيث إنه
 سمع أنّ بعض الناس ينسبون إليه الكذب فيستغرب قائلاً: «فَأَنَا أَوْلُ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ، فَأَنَا أَوْلُ مَنْ
 صَدَّقَ بِالنَّبِيِّ» (نفس المصدر). فهكذا يكذب تكذيبهم. فالغرض من تحطيم الزمن هنا تكذيبي؛
 لأن الامام يعود إلى خلفيته في الإيمان ليثبت لهم أنّه كيف يمكن لرجل كان أول مؤمن بالله
 ورسوله أن يكذب على الله سبحانه وتعالى، وعلى الرسول (ص). ونوع الارتداد إلى الماضي
 والFLASH باك خارجي؛ لأنّ المتكلم يقفز حين الخطاب إلى حدث خارج عن المحكي وقصير؛ إذ
 إنه يشير إلى خلفيته في الإيمان فحسب ولا يشير إلى أحداث أخرى.

النتيجة

□ يمكن الاستنتاج من دراسة بعض الخطب ورسالة من نهج البلاغة هو أنّ الزمن يتأرجح فيه
 بين الحاضر والماضي، ويرسم مفارقة طريفة بقطع الحدث الآتي ولحظة الخطاب، ثمّ الانصراف إلى
 أحداث تُستعاد عبر العودة إلى الوراء مع تراوح الماضي بين البعيد منه والقريب. فالهدف من هذا
 الاسترجاع الفني أو الفلاش باك هو إخبار المتلقي عن الحوادث الماضية والتعريف بالشخصيات
 التي أخذ يتحدث عنهم داخل الخطاب. لذلك يأتي الفلاش باك كفاصل يتوقّف القارئ عند
 الكلام المحكي، ويجعله متأملاً حول الحوار الذي يتجلى داخل الخطاب، ويجيء بالمخاطب إلى
 ماضٍ له أثر بالغ في الحاضر، ويعلق المواقف التي أحاطت بالخطاب، ويزوّد المتلقي بمعلومات تجعل
 ذهنه منوراً حول الحوادث التي سببت في القاء الامام الخطاب الذي يحكيه.

□ والتحقيق يبين لنا أنّ الاسترجاعات الموظفة في نهج البلاغة لعبت دوراً بنّاءً في تقديم
 المعطيات الحكائية المتعلقة بالأحداث السابقة من خلال إضاءتها كما أنّها أدت إلى انسجام
 النص وتماسكه عبر تبلور أحداث تُسهم إسهاماً ملحوظاً في حركة القصّة واستمرار أحداثها؛
 حيث أنّ التضاد الموجود بين واقعين لكل من شخصياته رؤية مغايرة أثّرت على دينامية النص

وجماليته وقدّمت متعة للمخاطب وشغفًا لمواصلة القراءة.

□ هذا وإنّ الاسترجاعات في نهج البلاغة تتراوح بين الاسترجاع الداخلي والاسترجاع الخارجي ولو نسبة تواتر الاسترجاع الخارجي كانت أكثر من الاسترجاع الداخلي. مضافاً إلى ذلك يستنبط من النصوص المدروسة أنّ تقنية السرد الاستذكاري تستخدم عندما يريد الامام أن يمدح بعض الشخصيات أو يوبّخ الآخرين أو يفتخر بدينه. وفي كثير من الأحيان استخدم الامام هذا الفن لتوبيخ بعض أنصاره والكوفيين الذين كسروا البيعة وسبّبوا في هزيمتهم عند الحرب مع معاوية و.. الخ. وفي بعض الأحيان يوظّف عليه السلام الفلاش باك لإلذار الناس ببعض الحوادث، والعبارة بالماضين من العمالقة وأصحاب الملك، والعبارة بأمم قد خلت، ومدن درست، ورثت آثارها.

المصادر

الف) عربي

كتب

- ابن أبي الحديد، (٢٠٠٧)، شرح نهج البلاغة، المجلد الرابع والخامس، تحقيق محمد ابراهيم، بغداد: دار الكتاب العربي.
- أحمد، مرشد، (٢٠٠٥)، البنية والدلالة في روايات ابراهيم نصر الله، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- بحراوي، حسن، (١٩٩٠)، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، الطبعة الأولى، بيروت: المركز الثقافي العربي المغرب: الدار البيضاء.
- بوعزة، محمد، (٢٠١٠)، تحليل النص السردى، الطبعة الأولى، بيروت: الدار العربية للعلوم.
- جينت، جيرار، (١٩٩٧)، خطاب الحكاية ترجمة محمد معتمد و عبدالجليل الأذى، عمرجلي، المجلس الأعلى للثقافة والهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- الحاج على، هيثم، (٢٠٠٥)، دراسة آليات بناء الزمن في القصّة القصيرة المصرية في الستينيات، جامعة حلوان، كلية الآداب، بحث لنيل درجة الدكتوراه.
- الحوم، على، (٢٠٠٠م)، ادوات جديدة في التعبير الشعري المعاصر (الشعر المصري نموذجاً)، الشارقة . امارات المتحدة: دائرة الثقافة والإعلام.
- خليل، ابراهيم، (٢٠١٠)، بنية النص الروائي، الجزائر: منشورات الاختلاف.
- الزيتوني، لطيف، (٢٠٠٢م)، معجم مصطلحات نقد الرواية، بيروت: دارالنهار للنشر.
- سويدان، سامي، (١٩٩٠)، في دلالية القصص وشعرية السرد، الطبعة الأولى، بيروت: دار الأدب.
- الشياب، صدام، (٢٠٠٧)، البناء السردى والدرامى في شعر ممدوح عدوان، أردن، جامعة مونة، بحث لنيل درجة الماجستير.
- الصالح، نضال، (١٩٩٩)، دراسة في الرواية العربية، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- القصرأوي، مها، (٢٠٠٤م)، الزمن في الرواية العربية، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الدورية

كياني، حسين و حسام پور، سعيد و دادپور، ناديا؛ (١٣٩٢)، «دراسة نقدية في توظيف الاسترجاعات في قصة النبي يوسف (ع)»، مجلة دراسات في اللغة العربية و آدابها، السنة الرابعة، العدد الرابع عشر، صيف.

ب) فارسي

دشتي، محمد، (١٣٧٩)، ترجمه نهج البلاغة، قم: بضعه الرسول.

گذرآبادي، محمد، (١٣٨٩)، ساختار، سبک و اصول فيلمنامه نويسي، چاپ پنجم، تهران: هرمس.

ميرصادقي، جلال، (١٣٨٧)، راهنمای داستان نويسي، تهران: سخن.

مجلات

توريم، موريس، (١٣٧٧)، «تعريف و نگره فلش بک»، مترجم: شهرام نجاريان، نشریه هنر و معماري، شماره ٢٨.

شهباء، محمد، (١٣٨٧)، «پس نما و پيش نما در فيلم»، مجله هنر و معماري، شماره ٧٦.

بررسی کاربست شگرد فلش‌بک در نهج البلاغه

علی نجفی ایوکی^{۱*}، صدیقه جعفری نژاد^۲، معصومه حسین پور^۳

۱. دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه کاشان

۲. دانشجوی دکتری زبان و ادبیات عربی دانشگاه کاشان

۳. دانشجوی دکتری زبان و ادبیات عربی دانشگاه کاشان

چکیده

«پس‌نما» یا «فلش‌بک» یکی از مهم‌ترین تکنیک‌های ادبی است که از سینما وارد عرصه ادبیات شد. این شگرد گرچه در نقد ادبی به نوعی فن جدید به حساب می‌آید، باین‌همه در متون گذشته به کار گرفته می‌شده‌است و عامل محوری در گسترش متن و حضور زمان‌های مختلف در متن به حساب می‌آید و موجب روایی شدن متن می‌گردد. نهج البلاغه یکی از متونی است که این تکنیک در آن حضوری فعال دارد؛ زیرا برخی خطبه‌ها و نامه‌ها شبیه روایت و قصه‌ای است که زمان‌پریشی در آن حاکم است. بر همین اساس، پژوهش حاضر می‌کوشد با روشی توصیفی - تحلیلی از کارکرد این فن و تأثیر آن بر نُه خطبه و یک نامه از نهج البلاغه که این شگرد حضوری فعال در آن‌ها دارد، پرده بردارد و تأثیر این فن را در تشویق خواننده و تمایل وی به سمت حوادث پیش‌آمده بررسی نماید. این امر مهم از طریق پارادوکس زمانی انجام می‌پذیرد که در زمان‌پریشی ماضی، حال و آینده نمود دارد. این بررسی نشان می‌دهد که فلش‌بک‌های موجود در نهج البلاغه سبب انسجام و پیوند متن شده و ضمن اینکه بر جوهره ادبی آن افزوده، موجب پویایی ذهن مخاطب یا خواننده می‌گردد. گذشته از آن، فلش‌بک‌های بیرونی بیشترین حضور را در نهج البلاغه دارند؛ بدین صورت که از رهگذر اطلاع‌دهی درباره گذشته شخصیت‌ها و حوادث دخالت داده‌شده، ذهن مخاطب را روشن و او را آگاه می‌کند.

کلیدواژه‌ها: نهج البلاغه؛ روایت؛ فلش‌بک؛ پارادوکس‌های زمانی.